

ملامح التجديد والسخرية في المقامة العربية

حديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحي* -أمودجا

Features of renewal and irony in the Arab Maqamah

The hadith of Issa Ibn Hisham by Muhammad

Al-Muwailhi* -as a model

مالح سيد أحمد

جامعة وهران 2 محمد بن احمد / الجزائر (sidahmedmalah@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2021/01/26؛ تاريخ القبول : 2021/05/17؛ تاريخ النشر : 2021/05/20

Abstract

الملخص

The Arabic maqama is the most prominent literary and artistic phenomenon in the Abbasid era, because it was formed and considered a unique product and creativity, which dazzled its connoisseurs. Teaching young people the language of the Arabs and its aesthetics, and at other times with the aim of enjoying listening and releasing the concerned, and this is the main purpose for which it was found, according to what we have concluded, because it has been associated with humor since its appearance. It was brilliantly portrayed in the Arabic maqama figures, so the talk of Issa Ibn Hisham to al-Muwailhi came as a new method and a sarcastic and critical tool for his society in a scathing way in which he departed from the old tradition of the book of maqamat, and approached the method of resistance with irony to a large extent.

Keywords: Standing, humour, irony, irony, innovation.

تعد المقامة العربية الظاهرة الأدبية والفنية الأبرز في العصر العباسي، ذلك أنها شكلت واعتبرت نتاجا وابداعا فريدا من نوعه، أبحر المتذوقين لها، بحيث عرف التأليف فيها سرعة في الانتشار والتقليد، فتعددت مواضيعها والأغراض التي وجدت من أجلها، فكانت تكتب تارة للوعظ والإرشاد وتارة أخرى بهدف تعليم الناشئة لسان العرب وجماليته، وتارة أخرى بهدف إمتاع الأسماع والتفريغ عن المهمومين، وهذا هو الغرض الأساسي الذي وجدت من أجله حسب ما خلصنا إليه وذلك لارتباطها بالفكاهة منذ ظهورها، أما الغرض النبيل الذي كان جوهرها هو نقد المجتمع وتوعية سواته بهدف إصلاحه وتقييم الصفات الرذيلة التي صورت بشكل بارع في شخصيات المقامة العربية، فجاء حديث عيسى ابن هشام للمويلحي كأسلوب مستجد وأداة ساخرة وناقدة لمجتمعهم بشكل لا ذع خرج فيه عن التقليد القديم لكتاب المقامات، واقترب فيه إلى أسلوب المقاومة بالسخرية إلى حد بعيد.

الكلمات المفتاحية: المقامة، الفكاهة، السخرية، النقد الساخر، التجديد.

مقدمة:

تعتبر المقامة من أهم الأشكال الأدبية النثرية التي ظهر تأثيرها جليا وبشكل ملفت عند العرب في العصر العباسي والتي أخذت مزيجا بين الشعر والنثر، ويمتاز هذا الفن الأدبي بالسرد والحوار والأسلوب الحكائي ويظهر فيه بجلاء البعدين الزماني والمكاني من خلال تحديد الحواضر والمدن وحتى زمن الخليفة أو والي الإسلامي الذي تدور معه أحداث الحكاية وبطل المقامة؛ وتتخذ المقامة إلى حد بعيد من الشعر من حيث القوانين والميزة، خاصة عند استخدامها الأسجاع والمحسنات البديعية اللفظية والمعنوية هذا من حيث الشكل أما من حيث المضمون فهي مجال واسع للتعبير عن الممارسات اليومية في شتى المجالات كالسياسة والدين والاقتصاد والثقافة والاجتماع والنفس، في أسلوبين وثنائيتين أساسيتين في الكتابة لا يقل أحدهما أهمية عن الآخر ممثلين في الجد / الهزل ، الفكاهة. فالمقامة العربية و إن قُيِّمت أهدافها على أنها عمل أدبي من أهدافه إمتاع الأسماع وتعليم الناشئة اللغة العربية الفصحى كما ذهب إلى ذلك شوقي ضيف، فإن ثنائياها لا تخلو من حمولة ثقافية رمزية ورسائل مشفرة تترجم المسكوت عنه لدى المؤلف.

تعد المقامات مصدرا غنيا للمعرفة التاريخية والحضارية والاجتماعية والأدبية جميعا، ذلك أن الباحث يستطيع أن يستمد منها الكثير مما لا يستمد من كتب التاريخ وخاصة فيما تعلق بالأحداث والوقائع التي تهم القرن الرابع للهجرة -الفترة التي ظهرت فيها المقامة تحديدا- وما حوله "وقد كانت تقع الكثير من الأمور وقوعا عفويا في المقامات بيد أن الباحث يستطيع أن يستخرج منها اليوم عناصر كثيرة يفيد منها في أبحاثه (المالك، 2007، ص 324)". ونفى عبد المالك مرتاض نفيا قاطعا بكون المقامات وصفا تافها مثلما ذهب إلى ذلك زكي مبارك كما نفى أيضا بأنها هزليات تثير الضحك؛ بل اعتبر الأسجاع فيها مظهرا من المظاهر الأدبية لذلك العصر، وأن تلك الهزليات هي بمثابة الماء للوجه والملح للطعام. ويرى عبد الحميد يونس أنه "كان العرب الجاهليون يجتمعون في دار الندوة التي كانت تضم الأشياخ والفرسان والراشدين من القبيلة، ويقوم بينهم من يتحدث حديثا مباشرا، ... وكان المتحدث يتخير موضوعه من أحداث الماضي وأحداث الحاضر، ويروي الأخبار والنوادر، ولم يكن الغرض من هذا الحديث المباشر مجرد المتعة؛ وإنما كان يستهدف غرضا تعليميا وأخلاقيا في وقت واحد، وظل هذا الغرض هو الوظيفية الأساسية لفن المقامة على مدى تاريخها

الطويل (يونس، 2004، ص 17). فاعتبرت المتعة في المقامات غرضاً ثانوياً والتعليم غرضاً أساسياً لها، وهذه وجهة نظر واهية يفندها بنفسه دون أن يشعر لما يقول بأنها كانت تلقى في دار الندوة وهي دار يجتمع فيها الشيوخ والراشدين وذوي الشأن والرفعة، وحسب رأينا لا يعقل أن يقوم في هؤلاء من يعلمهم، ولربما حجة شوقي ضيف بأن الغرض من تأليف المقامات هو تعليم الناشئة البلاغة وأصول العربية أبلغ من من حجة عبد الحميد يونس. ولكن كلتا الحجتين إن دلّتا على شيء فإنما تدلّان على عدم اعتبار المقامات من طرف معظم الدارسين كحامل أساس للتراث الفكاهي. في حين ذهب فيكتور الكّك إلى أن هدف إنشاء المقامات يتجاوز تعليم الناشئة قواعد اللغة والنحو إلى أهداف مهمة أخرى عددها سبعة (الكدية، المقدرة اللغوية والتعليم، النقد الأدبي، النقد الاجتماعي، الوصف، الدين، التكسب) (المالك، 2007، ص 172) لكنه لم يذكر الفكاهة، إلا في مقامات ابن نايقا بقوله "وإن كنا قد مزجنا فيها اللعب بالجد... فإننا نحسب أن ابن نايقا، بناء على ما جاء في مقدمته نفسها، رمى إلى غاية فنية قد تكون بحتة. فهو إنما كتبها ابتغاءاً للتسلية، أو ما يسمى بالمتعة الفنية، التي تمتع وتفرح أولاً ثم تهذب وتفيد ثانياً. (المالك، 2007، ص 188) وما أدى أيضاً إلى شيوع وتطور الفكاهة في المقامات آنذاك حسب رأينا هو ما أشار إليه عبد المالك مرتاض بأن التاريخ لم يحفظ لنا خليفة من الخلفاء فتك بواعظ أديب وعظه أو عالم نصحه.

أهم من برع في تأليف المقامات بدون شك بديع الزمان الهمذاني بما يزيد عن خمسين مقامة، على لسان راويته عيسى ابن هشام وبطله أبي الفتح الاسكندري، ثم تابعه في ذلك محمد الحريري البصري على لسان راويته الحارث ابن همام وبطله أبي زيد السروجي، هذا فيما يخص الرواد المؤسسين، ليسير كتاب المقامات اللاحقين مقلدين الهمذاني والحريري على نفس الخطى شكلاً وموضوعاً، حتى مجيء أبي محرز الوهراني في القرن التاسع الهجري والذي أحدث نقلة نوعية وموضوعاتية بمناماته العجيبة التي هي أقرب إلى الخيال من الواقع، وأهمها المنام الكبير فيصف فيها مراتب الآخرة والبعث بشكل ممتع وساخر، وبشأن مناماته ومقاماته نستدل بشهادة ابن خلكان فيه إذ يقول : "ولولم يكن له فيها إلا المنام الكبير لكفاه، فإنه أتى فيه بكل حلوة، ولولا طوله لذكرته (إبراهيم، 1968، ص 19) ، أما من المتأخرين فيعتبر حديث عيسى ابن هشام أيقونة المقامة العربية في ثوبها الحدائي والمعاصر من الناحية الموضوعاتية، فمال صاحبها إلى السخرية اللاذعة الجادة أكثر من الهزلية منها، وسنتطرق في هذه الورقة البحثية لأهم ملامح التجديد والسخرية في مقامة المويلحي وكيف وظف ذلك في حديث عيسى ابن هشام.

يعتبر حديث عيسى ابن هشام لمؤلفه محمد المويلحي نموذج هام يصور ويجسد النقاء الأعمال الجادة للمؤلف بأعماله الساخرة، ذلك أن أفكاره وملاحظاته وكتاباتة النقدية والإجتماعية الجدية صورها وأعاد انتاجها بطريقة فنية في حديث عيسى ابن هشام، إذ يرى أحمد ابراهيم الهواري بأن هذه الكتابات "لا تتقف عند مجرد التعرف على البناء الفكري والإجتماعي للمويلحي، وتأثير هذا البناء في الصور واللوحات الروائية في حديث عيسى ابن هشام" (أحمد، 1993، ص 23) كما اسلفنا، بل ويضيف بأنها "تقترب من قضايا الأنثروبولوجيا الإجتماعية، مما يثير شهوة الباحثين في حقل الدراسات الإنسانية قضايا ترتبط بالعلاقة بين الأدب والمجتمع (أحمد، 1993، ص 24).

يبدأ المويلحي باستهلال قصير يبرر فيه الغرض من تأليف مقامته بـ"الحمد لله الواحد العدل، والصلاة والسلام على سيدنا النبي الأمي القرشي الأبطحي التهامي المكي المدني وآله الطيبين الطاهرين، وبعد فهذا الحديث -حديث عيسى ابن هشام - وإن كان في نفسه موضوعا على نسق التخيل والتصوير فهو حقيقة منبرجة في ثوب خيال، لا أنه خيال مسبوك في قالب حقيقة، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم، وأن نصف ما عليه الناس في مختلف طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها، والفضائل التي يجب التزامها (المويلحي، 2013، ص 11) وهو حديث فيه تقليد واضح جلي لحديث المنامات عند الوهراني، ففي الحديث الأول الموسوم بالعبرة يستهله بـ "حدثنا عيسى ابن هشام، قال: رأيت في المنام كأني في صحراء .. (المويلحي، 2013، ص 13)". فممكن أن نقول بأن حديث عيسى ابن هشام مزيج بين المنام والمقام؛ ومن جهة ثانية نجده قلد الهمداني بأن حافظ على اسم راوي مقاماته الخمسون وهو عيسى ابن هشام، بل وعنون مقاماته باسمه.

يتحرر المويلحي في جل رواياته من استخدام المعطيات التراثية القائمة على المحسنات البديعية، فتغدو سخريته مباشرة خالية من التنميق اللفضي والتورية كحديثه الموسوم بـ:"العمدة في الأهرام"*** الذي يسخر فيه من الفراعنة المصريين وما شيدوه بقوله على لسان الباشا: "كنت اعتقد

وأنا في سالف الأوان، أن هذه البنية لمصر تاجها الذي تفاخر به التيجان، وأعجوبتها التي تنبهي بها الأقطار والبلدان، وشاهدها الذي يشهد لها بالمدنية والعمران، ولكني أراها اليوم بعد أن استضأت *** بنور العلم واهتديت بهدى العقل، وبحثت في حقائق الأمور، أن لا مزية فيها ولا خير منها، سوى أنها أحجار مرصوفة، وجنادل مصفوفة، لا تمتاز عن جبل من الجبال، أو تل من التلال، فهل تعلمان لها من معنى غامض التوى عليّ فهمه، أو سر خفي عليّ علمه؟ (المويلحي، 2013، ص 236) فتظهر هنا سخرية مباشرة من الاهرامات المصرية وتشبيهها بالجبال والتلال وبأنها مجرد أحجار مرصوفة، وهي سخرية غريبة عجيبة سابقة من نوعها تعرّض صاحباً للتراث المادي المصري على شكل وصف خال من التتميق اللفضي عدا السجع الذي تقوم عليه المقامة فلم يستطع المويلحي العدول عنه، فيجيب الصديق عن تساؤلات الباشا بحديث ووصف لا يقل سخرية عن الأول بقوله: "ليس لها على الحقيقة من سر خفي ولا من فائدة بادية سوى لأن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة من هذه الدنيا بعد الممات،... فتسخير الأمة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإزهاق أرواحها في بناء هذه الصخور أنما كان فكري ساقط، واعتقاد سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة، أو من عمل كاهن مكر لمنفعة معلومة، ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر، ولا من عزة لمعتزّ، وما هو إلا الظلم والغشم والظلال والجهل، وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمين على الدهر شاهدي عدل على سابق الشقاء في الأمة المصرية، وما كانت تعانيه من فضاة الظلم والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد، ولو كان لأولئك الملوك ادنى لمحة في ارتقاء المدنية والعمران لكانت هذه الأحجار والصخور مرتفعة في بناء القناطر والجسور... أولئك الملوك عباد الأوهام، ومستعبدون الأنام" (المويلحي، 2013، ص 236) وهنا تظهر ملامح السخرية السياسية بشكل واضح بتعرض محاور الباشا لشخصيات الملوك الظلمة سفهاء الأحلام واستهزائه بهم كما تعرض لرجال الدين فيما سماهم بالكهنة وبأن قرارات الملوك الظالمة تمر عبر تكهناتهم وتركيتهم لمثل هذه الأعمال التافهة باسم الدين والمقدس، وهذه رسالة قوية من المويلحي لكل الملوك الظلمة ومن عاونهم من رجال الدين.

إن سخرية المويلحي قوية تضرب في أعماق وجذور التاريخ الحضاري والسياسي المصري باعتباره أن التاريخ الفرعوني في مصر القديمة لا يشرف المصريين، كما لا يُخفي كذلك عداءه ممن احتل مصر من اللاحقين في قوله: "وما أرى لهذا الهرم من معنى آخر يذكر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبرا من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسي اسمه نابليون (المويلحي، 2013، صفحة 237)"

أما لغة التأليف عند المويلحي فيتعامل معها "بقدر، فهي وإن تميزت بالتدفق والسيولة والتحرر من المحسنات البديعية (اللفضية والمعنوية) إلا أنها تخضع لشكيمة العقل. بينما يعتمد «المويلحي» الأسلوب التصوري. هنا، فهي تخاطب الوجدان وترنو أن تحرك المشاعر الدفينة في القارئ وتنبه لما حوله من «المنشآت الاجتماعية» لذا فالطابع الذي يسم اللغة يتميز بوضوح النبرة الموسيقية. فهو يجتهد - المويلحي - أن يحدد داخل إطار المحسنات البديعية ليوحه نقده الاجتماعي (أحمد، 1993، ص18)

مقارنة بأسلوب الكتابة التقليدي لدى كتاب المقامات فإن "مفردات البناء الفني للمقامة تهدف إلى الغاية اللغوية والعناية بها على نحو ما فعل «الياجزي» وإن أفاد كثيرا من تاريخ الجاهلية والأمثلة العربية. لكن «المويلحي» كان يتأثر الصور الفنية الموروثة في الشعر والنثر الفني ... وهذا يعني أن تأثر «المويلحي» بالتراث تمثل في «الصور الفنية» وليس في المفردات المعجمية (أحمد، 1993، ص، ص26-25).

يذهب محمود تيمور إلى أن "أدباء اليوم يحكيون فنههم القصصي في إطاره العربي القديم الموروث عن فن المقامة وما إليها ... ويعد حديث عيسى ابن هشام لمحمد المويلحي المتوفي 1930 نقطة تحول عظيمة ووثيقة هائلة لفن المقامة في ثوبه الحالي القصصي. (تيمور، 1963 ، ص17) " وتطور "كتابات المويلحي في إطار الفكرة الأرسطية عن «التطهير» ويكاد يتفق هؤلاء الرواد، على أن الوظيفية الاجتماعية للفن تقوم على هذه الفكرة ببعدها الأخلاقي، والجمالي. وعندهم أن الأخلاقي هو بالضرورة جمالي (أحمد، 1993 ، ص120). وهذه الوظيفية تتخذ نقدها جوهرها لها "ومعنى هذا أن مدلول النقد هنا لا يقف عند حدود مدلول النقد الأدبي الذي يتخذ من النص الأدبي محورا أو ركيزة لعمله وتحليله، بل يمتد ليستوعب الواقع بما يكتنفه من ظلمات بهدف تسليط الأضواء (أحمد، 1993 ، ص27) " ومن أهم ما وقفنا عليه من ملاح التجديد والتقليد في حديث عيسى ابن هشام هو أن التراث النقدي حول نقد هذا النص "يثير تباين رؤى الأديب في عصر الإحياء ونظرته للشكل الأدبي (المقامة). فالمويلحي يختلف في نظريته عن الياجزي وهما معا يختلفان عن فارس الشدياق وهذا الاختلاف يرد إلى طبيعة ثقافة الأديب، وحساسيته للواقع وطبيعة علاقته بهذا الواقع، وموقفه من التراث، والرسالة الفنية التي يرنو إلى تصويرها وموقعه الاجتماعي، ومدى تعبيره عن مجتمعه ومطالبه (أحمد، 1993 ، ص25).

من مظاهر التجديد في المقامة العربية المعاصرة للمويلحي أيضا نموذج الشخصية البطلية في الرواية، فمع محافظته على نفس إسم بطل مقامات الهمداني - أبي الفتح الإسكندري - أيضا إلى جانب الراوي كما أسلفنا، ارتأى المويلحي نمودجا مغايرا للتسول وهو نموذج «الباشا» بحجة أن نمط المتسولين حسب أحمد إبراهيم الهواري "لن يتيح له الفرصة لكي يلم بما يريد من موضوعات اجتماعية. لذا اتخذ بطله من جيل سابق عليه. وهي شخصية لها وجود تاريخي بالفعل، شخصية الباشا المنكيلي⁺ مثلما اتخذ الصادق المهدي -جعفر نميري- رئيس الوزراء السودان الأسبق، بطلا لمقامته «الجعفرية» (المهدي، 2006، ص 30) مخالفا الهمداني في نموذج وإسم شخصية البطل على حد سواء. وهذه مفارقة عجيبة بين المقامة العربية الأصلية في بداياتها الأولى وبين المقامة المعاصرة فيما يخص نموذج الشخصية البطلية لانه شتان بين المتسول وبين الرئيس أو الباشا، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على الجرأة الأدبية لمؤلفي الفكاهة المعاصرين، في النقد وتوجيه سهام السخرية باختيار النماذج الإنسانية الحساسة ذات الوزن الثقيل. مقارنة بمؤلفي المقامات العتيقة على غرار الحريري والهمداني، وهذه المفارقة ربما نعوز سببها إلى السياق التاريخي ونظام الحكم ودرجة حرية التعبير لكل عصر.

خلاصة:

تعد المقامة العربية الظاهرة الأدبية والفنية الأبرز في العصر العباسي، ذلك أنها شكلت واعتبرت نتاجا وإبداعا فريدا من نوعه، ابهر المتذوقين لها، بحيث عرف التأليف فيها سرعة في الانتشار والتقليد، فتعددت مواضيعها والأغراض التي وجدت من أجلها، فكانت تكتب تارة للوعظ والإرشاد وتارة أخرى بهدف تعليم الناشئة لسان العرب وجماليته، وتارة أخرى بهدف إمتاع الأسماع والتفريج عن المهمومين، وهذا هو الغرض الأساسي الذي وجدت من أجله حسب ما خلصنا إليه وذلك لارتباطها بالفكاهة منذ ظهورها، أما الغرض النبيل الذي كان جوهرها هو نقد المجتمع وتوعية سواته بهدف إصلاحه وتقويم الصفات الرذيلة التي صورت بشكل بارع في شخصيات المقامة العربية، فجاء حديث عيسى ابن هشام للمويلحي كأسلوب مستجد وأداة ساخرة وناقدة لمجتمعها بشكل لاذع خرج فيه عن التقليد القديم لكتاب المقامات، واقترب فيه إلى أسلوب المقاومة بالسخرية إلى حد بعيد.

قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم الهواري أحمد .(1993) نقد المجتمع- في حديث عيسى ابن هشام للمويلحي .مصر :عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.
- ابن خلكان أحمد بن محمد بن إبراهيم .(1968) .وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) . تحقيق :إحسان عباس،، المحرر (بيروت :دار الثقافة.
- الصادق المهدي .(2006) .الفكاهة ليست عبثاً ، . الخرطوم :دار العزة للنشر والتوزيع.
- عبد الحميد يونس .(2004) .لحكاية الشعبية .القاهرة :دار الكتاب العربي.
- محمد المويلحي .(2013) .حديث عيسى بن هشام :أو فترة من الزمن .القاهرة :كلمات عربية للترجمة والنشر .
- محمود تيمور .(1963) .ظلال مضيئة من فلسفة الأدب والفن ومشكلات المجتمع والحياة، . مصر :دار المعارف.
- مرتاض عبد المالك .(2007) .فن المقامات في الأدب العربي . الجزائر : طبعة :الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

قائمة التوضيحات والاضافات

* تعلم في الأزهر ثم في مدرسة الأنجال (أنجال الخديو إسماعيل) ونشأ في نعمة مع والده وولى منصبا في وزارة "الحقانية" بمصر سنة 1881 فاستمر سنتين، ونشبت الثورة العربية، فكان أحد رجالاتها، وأصدر منشورا ثوريا. وعزل بعد الثورة فسافر إلى أوروبا والاسنانة، ثم إلى مصر وعمل في تحرير بعض الصحف. وعين معاون إدارة بالقلوبية في الغربية. واستقال وأنشأ مع أبيه جريدة "مصباح الشرق" سنة 1898 ونشر حديث "عيسى ابن هشام" أو "فترة من الزمن" منجما، وعين وديرا لإدارة الأوقاف، فضل إلى سنة 1915 واعزل العمل، فلزم منزله و ألف كتابه الثاني "علاج النفس" وفلج في أواخر أيامه. وتوفي في ليلة عيد الفطر بمنزله بضاحية حلوان. ينظر: أحمد إبراهيم الهواري، مرجع سبق ذكره، على هامش ص 27.

** وهو الحديث رقم ثمان وعشرون من مجموع أحاديث محمد المويلحي التي مجموعها أربعون حديثا في المرجع الذي بين أيدينا.

***في نسخة الطبعة التي بين يدينا مكتوبة "استضاءت" ونظنه خطأ مطبعي لا يستقيم معه المعنى ولا الفهم، لأن الباشا كان يتحدث عن نفسه والكلمة التي بعدها توضح ذلك وهي "اهتديت" فكتبناها "استضاءت" حتى تتضح العبارة.

⁺من أشهر القواد المصريين، اشترك في حرب سوريا مع ابراهيم باشا، وتولى منصب ناظر الجهادية 1862 م، وقد أسندت إليه قيادة الحملة البرية المصرية التي أرسلت في عهد سعيد باشا لمساعدة تركيا في حرب القرم 1853 – 1856 م.